حقيقة هذه السنن إلا إذا بحثنا فهدينا، فنعلم بوجود السنة المعينة وكنهها، والبحث كما يشمل الكون المادي، يشمل البحث والنظر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، وبالبحثين نكتشف السنن المبثوثة في كتاب الله المنظور والمقروء.

ومن ثم فإن الفرق بين الرأيين السابقين ليس كبيراً، إن لم يكن غير قائم، فالذين قالوا بورودها على سبيل التمثيل نظروا إلى الأمر بالبحث عنها والدعوة إلى السير من أجل اكتشافها، وبالتالي يكون ما قدم إلينا منها وعلمناه هو بعض السنن، والبعض الآخر مدعوون إلى البحث عنه، والذين قالوا بأنها وردت على سبيل الحصر، نظروا إلى أصل وجود السنن، وهي حقاً موجودة ـ كما قلنا ـ لكنها تحتاج ـ لكي تخرج من عالم الوجود في علم الله تعالى وبنائه الكون عليها، إلى علم البشر، ومعرفتهم بها تحتاج إلى البحث والنظر حتى يتم الكشف عنها، والكشف إنما يكون بشيء موجود.

وهكذا يكون الخلاف بين الموقفين، خلاف في وجهة النظر لا أكثر.

٢/٢: لماذا بنيت الحياة على السنن؟

إن حكمة الله تعالى تتجلى واضحة في بناء الكون والحياة على أساس من السنن الثابتة المطردة المنضبطة العامة الوقوع، وذلك أن صياغة الحياة ضمن روابط مطردة وعلاقات ثابتة هو الذي يجعل الإنسان يتعرف على موضع [illegible]، وعلى الوسائل التي يجب أن يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته والوصول إلى إشباع حاجته، ولولا ذلك لما استقام للإنسان تحقيق هدف من [illegible] أو إشباع حاجة من حاجاته. إن خضوع الماء لقانون ثابت في الغليان أو

التجمد أو التحول إلى الحالة الغازية، هو الذي يجعل الإنسان قادراً على الاستفادة من الماء في أحواله المختلفة، يستطيع أن يصل به إلى حالة الغليان عندما يحتاج إليه في هذه الحالة، ويستطيع أن يصل به إلى حالة التجمد عندما يحتاج إليه في هذه الصورة، ويستطيع أن يحوله إلى الحالة الغازية ثم العودة به إلى حالة السيولة مرة أخرى عندما يكون ذلك محققاً لرغباته وشبعاً لحاجاته.

إن الذي يمكن الإنسان من كل ذلك هو خضوع الماء للقانون الذي طبعه الله عليه، وإطراد القانون وعدم تخلفه، وعمومية ذلك في الأزمنة والأمكنة، ولسائر الناس.

إن بناء الحياة على السنن الثابتة المطردة العامة الوقوع يلقى بالمسئولية في بناء الحياة على الإنسان، فهذه السنن لا تستعصي على أحد، وإنما تستجيب لمن يستخدمها، يقول تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق:٣] أي سننا تنظم علاقته بكل أجزاء الكون، من أخذه بسنته أقبلت عليه السنة ـ ولا بد ـ فهي منقادة لكل من عمل بها واستغلها بحقها، مؤمنا بالله تعالى أو غير مؤمن بها ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥]، فالله تعالى لا يخلف سننه مع من يصلحون بها دنياهم ولو كانوا به مشركين وعنه معرضين، وإنما تنقاد السنن لكل من يستخدمها بشروطها ويعمل وفقاً لها.

إن هذا هو بعض مضمون تسخير الله تعالى ما في السموات وما في الأرض للإنسان، إذ قد جعل سبحانه لكل شيء سننا يمكن باكتشافها

والوقوف عليها الاستفادة من هذه المسخرات ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية:١٣].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم:٣٢-٣٤].

ان انقياد السنن لمن يستخدمها هو نفسه سنة إلهية، وبها يتحقق الابتلاء والاختيار الذي خلق له الإنسان، ومن خلال السنن وانقيادها مسخرة يظهر دور الإرادة الإنسانية، وحرية الاختيار التي أتيحت للإنسان، ومن ثم فإن النتائج التي نرى على الساحة الاجتماعية ستكون نتيجة طبيعة لعمل الإنسان وسلوكه ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠]